إطلالة على :
الحقائق الغائبة في تطوير اللغة العربية

توقفت طويلا عند عبارة وردت في مقال الأستاذ الدكتور محمد عناني نُشر على هذه الصفحة بعنوان "الحقائق الغائبة في مسألة تطوير اللغة العربية". وهذه العبارة هي : "وكم من طالب يكتب العربية الناصعة أو الإنجليزية الباهرة دون أن يعرف تصاريف أفعالها أو قواعدها !".

ولقد أخذت أسائل نفسي : ترى هل من الممكن حقا أن يكتب كاتب لغة ما دون أن يعرف قواعدها ؟ وهنا قفز إلى ذهني ما كنت قد قرأته منذ سنوات طوال لكاتبنا إبراهيم عبد القادر المازني في كلمة بعنوان "النحو" نشرت ضمن كتاب (أحاديث المازني) الذي نشرته الدار القومية للطباعة والنشر سنة ١٩٦١ ، وسوف نستعرض ما قاله المازني في هذا الصدد ثم نقوم بالتعليق عليه.

يقول المازني (ص١١١) : "النحو علم لا أعرف منه إلا اسمه. وما أكثر ما أجهل وأضأل ما أعرف ولو كنت وجدت من يعلمنيه لتعلمت وما قصرت ، وكيف بالله تنتظر مني أن أعرفه بالفطرة والإلهام ؟ وبعد أن يروي المازني تجربتين مريرتين له مع معلمي النحو في التعليم الابتدائي والتعليم الثانوي ، يقول (ص١١٥) : "فممن كنت أتعلم النحو بالله وما الذي كان يمكن أن يغريني أن أتعلم وحدي. ثم ما فائدة هذا النحو الذي لم أتعلمه ولم أحتج إليه؟!"

وينتقل المازني بعد ذلك إلى الإجابة عن سؤال تخيل أنه وُجِّه إليه عما كان يفعل في الامتحانات ، فيقول (ص ١١٥) : "كنت أقرأ ورقة الأسئلة وأترك النحو إلى آخر الوقت ثم أتناوله وأروح أجمع طائفة من الأمثلة استخلص منها القاعدة فأجعل هذا جوابي.

ولا شك أنه كان لا يخلو من نقص ولكنه لم يكن خطأ كله. هذه كانت طريقتي وقد استغنيت بها عن حفظ ما في كتب النحو. وأراني الآن أصبحت كاتبا – وقد كنت في زماني شاعرا كذلك – وقد وسعني هذا وذاك بغير معونة النحو."

ويحدثنا المازني بعد ذلك عن بعض الأسئلة التي وجهت إليه في الامتحانات الشفهية

والتي لا تختلف كثيرا على المثالين اللذين ساقهما د. عناني (مثل سؤالنا الطلاب الإتيان بمفرد كلمة "أشلاء" أو مؤنث كلمة "أجل") فيقول (ص١١٦) : "وشرع يسألني عن كلمة "العدوان" ما فعلها الثلاثي ولماذا يقال : "اعتدياً" – بفتح الدال للماضي – واعتديا بكسرها للأمر. فلم أعرف لهذا جواباً فقلت هكذا نطق العرب وعنهم أخذنا. فألح في طلب الجواب المُرْضِي. فقلت "إن اللغة نشأت قبل القواعد. وأنا أنطق وأكتب وأقرأ كما كان العرب يفعلون من غير أن يعرفوا قاعدة أو حكما فساءه جوابي ونهرني ..."

ويقترح المازني أن تحل قراءة الأدب العربي محل النحو ، وأن يتم وضع مختارات صالحة لكل سن. وإذا كان لابد من النحو فليكن ذلك عرضا وأثناء القراءة وعلى سبيل الشرح وللاستعانة به على الفهم ، وعلى ألا يكون ذلك درسا مستقلا يؤدي فيه امتحان.

وينتقل المازني إلى نقد طريقة تدريس العربية فيقول (ص١١٧) : "أما الطريقة التي يتعلم بها أبناؤنا العربية فإني أراها مقلوبة لأنها تبدأ بما يجب الانتهاء إليه ومن ذا الذي يتصور أن صبيا صغيرا يستطيع أن يفهم ما الفعل وما الاسم وما الحرف (...) وأن هذه الفتحات والضمات والكسرات علامات إعراب أو لا أدري ماذا هي. وأن لفظا يكون مسندا ولفظا آخر يكون مسندا إليه إلى آخر هذه الألغاز التي لا يعقل أن يدركها طفل صغير..."

ويحدثنا بعد ذلك عن أنه اختلط عليه الأمر في مسألة نحوية فكتب الوجهين اللذين حار بينهما ثم ذهب ينظر إليهما فالذي سكنت إليه نفسه أخذ به وتبين بعد ذلك أن ما أخذ به كان هو الصحيح وأن عينه لم تخدعه وأن نفسه اطمأنت إلى ما طال عهدها به من الصواب ، أما ما لم تألفه أثناء مطالعاته فقد رفضه.

ويعلق على هذه الطريقة فيقول (ص١١٧-١١٨) : "والطريقة التي أشير بها تجعل العربية سليقة على خلاف ما هو حاصل الآن فإن أبناءنا يتعلمون العربية كما يتعلمون الإنجليزية أو أية لغة أجنبية أخرى لا يشعرون بصلة بينها وبين نفوسهم وكثيرا ما يتفق أن يخرج التلميذ وهو أعرف باللغة الأجنبية منه بالعربية ، وليس بعد هذا فشل والعياذ بالله."

والآن نعود إلى السؤال الذي طرحناه في بداية المقال وهو : هل من الممكن أن نكتب

دون أن نعرف قواعد اللغة التي نكتب بها ؟

والإجابة فيما نعتقد بالنفي. وفي حقيقة الأمر فإن قول د. عناني إن الطالب لا يعرف تصاريف الأفعال أو قواعد اللغة الإنجليزية ينطوي على مفهوم آخر للمقصود بـ "المعرفة". فربما قصد أن الطالب لا يعرفها معرفة واعية CONSCIOUS بمعنى أنه لا يستطيع تعليمها لغيره مثلا ، ولكننا نعتقد أنه يعرفها بطريقة "غير واعية" ، UNCONSCIOUS إذا جاز هذا التعبير ، بمعنى أنه يعرف كيف يستخدمها استخداما صحيحا ويستطيع أن يراجع نفسه ويصحح لنفسه لو كان ما كتبه مخالفا لما "يعرفه".

وأحسب أن لديَّ دليلا أو على الأقل مؤشرا لأن العكس هو ما يمكن أن يحدث ، بل هو ما يحدث بالفعل ، بمعنى أن الطالب قد "يعرف" النحو معرفة واعية دون أن يكتب كتابة صحيحة. فقد توليت تدريس مادة "النحو والمقال ، في قسم اللغة الإنجليزية بكلية اللغات والترجمة عدة سنوات. ولاحظت أن كثيرا من أسئلة النحو التي يجيب عنها الطلاب إجابات صحيحة لا تكاد ترى قواعدها متبعة أو مطبقة في كتاباتهم ! فنحن هنا إزاء حالة "يعرف" فيها الطالب النحو ولكنه لا يستخدمه ، وليس حالة "لا يعرف" فيها النحو ويستخدمه كما جاء بمقال د. عناني أو ما ذهب إليه المازني.

وأنتهز هذه الفرصة لأكرر ما سبق أن دعوت إليه في مقال لي بهذه الصفحة ٢٥/ ٥/ ١٩٩٠ بأن يتم تدريس النحو بطريقة استنتاجية وليست استقرائية ، وهي نفس دعوة المازني وإن جاءت بطريقة غير مباشرة حين حكى لنا كيف كان يجيب عن أسئلة الامتحانات ، وحين دعا إلى إحلال نصوص من الأدب العربي محل النحو ، وحين قرر أن طريقة تعليم النحو طريقة "مقلوبة".

وبالرغم من اقتناعي بدعوة المازني إلى أن نجعل العربية "سليقة" ، (أو أن ننمي لدى الطالب ما يسميه الإنجليز feel of the language ، الحس اللغوي") فإنني أرى أن هذا الحس لا يتأتي إلا بالقراءة المستفيضة والاطلاع الواسع وهما أمران نادران بين طلابنا ، وهذا مما يزيد من حاجتنا إلى تعلم النحو.

بقى تعليق على ما قاله المازني من أن التلميذ يخرج وهو أعرف باللغة الأجنبية منه بالعربية ، فأقول بكل أسى وأسف إن من يراجع نِسب النجاح في أقسام اللغة العربية بجامعاتنا هذا العام على سبيل المثال ويقارنها بنسب النجاح في أقسام اللغات الأجنبية

ربما وجد مؤشـرا إلى ما ذهب إليها المازني ، مع تحفظنا على اعتبار نسب النجاح وحدها هي الدليل على إجادة اللغة. ولكن معرفتي الشخصية ببعض المتخرجين في أقسام اللغـة العربية وبالكثيرين مـن المتخـرجين في أقـسام اللغـات الأجنبيـة ربمـا أوقفـتني في صـف المازني!!

صفحة «الفكر الثقافي»

(٣٠/ ١١/ ١٩٩٠)